حديث السعودية

الأحد 17 شعبان 1446هـ الموافق 16 فبراير 2025م

سعودُ بنُ خالدٍ
وقصّةُ وفاءٍ معَ مدينةِ خيرِ الأنبياءِ

يقولُ حكيمُ شُعراءِ النَبَطِ، وأعجوبةُ الشّعرِ الفصيحِ عندَ العربِ، نزيلُ الطّائفِ وابنُ رِباعِها، الشّاعرُ بديوي الوَقدانيُّ -رحمَهُ اللهُ- في رائعةٍ مِنْ رَوائِعِه الشِّعْريّةِ الّتي سارتْ بها الرُّكبانُ في كلِّ زَمانٍ:

والنّاسُ ذا فاقِدٍ يَبكي أَحِبَّتَهُ
وذاكَ يُبكىَ عليهِ وهوَ مَفقودُ

إنَّ الفَقدَ لمن استقرَّ مكانُهمْ في النُّفوسِ، وامتزجَ حبُّهم في القُلوبِ، فَقْدٌ لا يُعادلُه فَقدٌ، وألَمٌ لا يمكنُ وصفُه. وفي التّاريخِ والأخبارِ والأشْعارِ قِصصٌ عنهُ تَناقَلها العربُ مِنْ قديمِ الزَّمنِ وصَدْرِ الإسلامِ.

وأعظمُ الفَقدِ، فَقدُ مَنْ كانَ حبُّه في اللهِ، وللهِ، ومِنْ أجلِ اللهِ، وبخاصّةً مَنْ سخّرَ حياتَه لخدمةِ ما يحبُّه اللهُ ويُريدُه اللهُ، في مدينةِ أعظمِ حبِّ طاهرٍ عرفتْه البشريّةُ، مدينةِ رسولِ الله -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- الّتي قالَ فيها مجتَبَى خيرِ الخلْقِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم-:

«اللهمَّ حبِّبْ إلينا المدينةَ كحبِّنا مكّةَ أو أشدَّ».

فمنْ حبِّ المدينةِ، حبُّ كلِّ ما اتّصلَ برسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، فِيها، ومن حبِّه، صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- حبُّ مسجدِها، وحبُّ بِقاعِها الشّريفةِ، ورِياضِها المنيفةِ، وحبُّ أهلِها وساكِنيها وزَائِريها، وحبُّ أمرائِها ووُلاتِها المتشرّفينَ بِها وبِخدمتِها.

ولئنْ كانَ النّبيُّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- قالَ على وجْهِ العمومِ:

«خيارُ أمرائِكمُ الّذينَ تحبُّونَهُم ويحبُّونَكم، وتُصلُّونَ عليهِم ويصلُّونَ عليكُم»،

فإنّ هذهِ الخيريّةَ تزدادُ في أمراءِ المدينةِ المنوّرةِ المتعلّقينَ بها حبًّا، والمعظّمينَ لنبيِّها وفضلِها وحرمتِها قدْرًا، والقائمينَ بِخدمتِها تشرّفًا، والسّاعينَ في الارتقاءِ بمشاريعِها، وخدماتِها، وراحةِ ساكنيها وزائريها -حقًّا. فخيريّتُهمْ داخلةٌ في قولِ النّبيِّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم:

«والمدينةُ خيرٌ لهمْ لوْ كانُوا يعلمونَ».

وهيَ خيريّةٌ عامّةٌ شاملةٌ على النّأْبيدِ، في فضلِ سُكناها، والموتِ بها، والعبادةِ فيها، وفي صاعِها ومدِّها، وأكلِها وشُربِها، وشرفِ أهلِها، وأخُصُّهم أمراؤُها المتشرّفونَ بخدمتِها. فهيَ كلُّ الخيرِ لمنْ رامَ خيرًا في الدّنيا والآخرةِ.

وللهِ درُّ مَنْ قالَ:

إذا لم تَطِبْ في طِيبةٍ عندَ طيّبٍ
بِهِ طابَتِ الدّنيا فأينَ تَطيبُ

كتبتُ هذهِ المقدّمةَ، لعلّ فيها تسليةً لقلبِي الّذي أصابَه الهوْنُ حُزنًا، والبكاءُ فَقدًا، لرحيلِ إنسانٍ استقرَّ في القلوبِ حبُّه، وتمكّنَ في الفؤادِ وُدُّه، وزادَه بجميلِ أخلاقِه، وجليلِ طِباعِه، وحَسَنِ تعامُلِه، ووِصالِه.

ذاكَ، هوَ الأميرُ الّذي ازدانَ جمالُ إمارتِه بجلالِ أخلاقِه، وأحسبُ أنّ كلَّ واحدٍ مِنْ أهلِ مدينةِ رسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- يشعرُ بودِّه ومحبّتِه، لجميلِ وِصالِه منَ الجميعِ وقربِه.

إنّه سَليلُ الفَيصلِ الشّهيدِ، ونجلُ، ومَعقِدُ آمالِ الخالدِ الفيصلِ الفَريدِ.

إنّه سعودُ الخيرِ، وسُعودُ الحبِّ، وسُعودُ النّبلِ. أكرِّرُ اسمَه بحُروفِي، ويتكرّرُ معَها دَفْقُ نهرٍ مِنْ دُموعِي.

سعودُ بنُ خالدٍ الفَيصلِ.. قصةُ حبٍّ جميلةٌ، وروايةُ وُدٍّ بليغةٌ، وشمائِلُ شخصيّةٍ فريدةٌ.

سعودُ بنُ خالدٍ، مَنْ وثّقَ وأحكمَ قيدَ حبِّه لمدينةِ الحبِّ الخالدِ، ومعَ أهلِ مدينةِ الشّرفِ والمجدِ التّالِدِ.

سعودُ بنُ خالدٍ، نهرٌ متدفِّقٌ منْ جميلِ المعاني، ودُررٌ منْ غالِي المشاعِرِ، الّتي كانَ يَنثرُها بينَ النّاسِ حبًّا، ووُدًّا، ووصلًا، مستحضراً شرفَ البقعةِ الّتي شرّفَه اللهُ بها، كأوّلِ نائبٍ لأميرِها في تاريخِ هذهِ الدّولةِ المجيدةِ، بل أحسبُ أنّ ذلكَ في تاريخِ طِيبةَ على الحقيقةِ، وتلكَ خصوصيّةٌ حازَها شرَفًا، واكتسبَها منَ اللهِ فخرًا.

فضلًا عنْ أنّ اللهَ منحَه، وأباهُ قامةَ الوطنِ الأشَمِّ، سموَّ الأميرِ خالدٍ الفَيصلِ -متّعَه اللهُ بصحّتِه وأيّامِه- بأنْ كانَ الأبَ أميرًا لمكّةَ المكرّمةِ -شرّفَها اللهُ- وابنَه نائبًا لأميرِ المدينةِ المنوّرةِ -نوّرَها ورفعَ مِنْ ذكرِها اللهُ. وتلكَ فريدةٌ ونادرةُ الوُقوعِ في تاريخِ الحرمَين، ومِنحةٌ منَ الّذي لا ينفدُ عطاؤُه في الخافقَين. ولعلَّها هِبةٌ منَ اللهِ لخبيئةٍ بينَ الملكِ الفَيصلِ الشّهيدِ، وبينَ اللهِ المعطِي المجيدِ.

فالمدينةُ -شرّفَها اللهُ- حبُّ رسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- واللهُ لا يختارُ لمدينةِ حبيبِه، الّذي أمرَ بحبِّها، إلا الأكملَ. وهذهِ قاعدةٌ مقرّرةٌ عندَ أهلِ التّاريخِ، والسِّيَرِ، والخَصائصِ، والشّمائلِ.

ووفّقَ اللهُ الوالدَ وما ولَدَ.. وبارك فيهِمْ وسدَّدَ وأيّدَ.

في الأسبوعِ قبلَ الماضِي، كانَ موعدُ أهلِ المدينةِ معَ موقفٍ جللٍ، وقضاءٍ منَ اللهِ نفذَ.. أنْ حانَ وقتُ رحيلِ نائبِ أميرِهمُ الّذي سَكنَ قلوبَهم حبًّا، وأسرَها نُبلا.. بعدَ أنْ قضَ معهم ثماني سنَواتٍ، فعاشَ معهم، ومنْ أجلِ خدمةِ مدينتِهم.. وألهمَ كلَّ مَنْ حولَه وعملَ معه أو عرَفه جمالَ الإدارةِ والقِيادةِ بالحبِّ.

إنّهُ الحبُّ.. وما أدراكَ ما الحبُّ.. الّذي به تُبنى الأممُ.. وتُعمَرُ الأوطانُ.. ويَعيشُ البشرُ بوُجودِه بينهم في أمنٍ وسَلامٍ.. وصفاءٍ ونَقاءٍ.. فيحصلُ معه الأنسُ والسّعادةُ، وحياةٌ راقيةٌ وزيادةٌ.

الحبُّ ذلكَ المعنى الّذي إذا وُجدَ بِصدقٍ ارتقَى الجميعُ أعلى مقاماتِ الفضلِ والفضيلةِ.. ولعلّ مما يجبرُ هذا الحزنَ والفَقْدَ.. الكلماتُ الراقيةُ والمعاني الفائقةُ الّتي ازدانَ بها حديثُ سموِّ الأميرِ النبيلِ المحتفي للمُلهِمِ سلمانَ بنِ سلطانَ أميرِ مأرِبِ الإيمانِ.. والّتي نَثرَها كالدُّررِ في سعودِ الخيرِ والبِشرِ.. بينَ أهلِ طيبةَ الخيرِ.. بأطيبِ حروفٍ وأصدقِ كَلِمٍ.. فكانَتْ جامعةً ببراعةٍ.. وشاملةً بأناقةٍ.. ومُثريةً رقراقةً.. فلمْ يبقَ معَ جمالِها مقالٌ.. ولا معَ بليغِ معانيها مقامٌ.. فلقدْ شملتْ بجمالِ معانيها وجلالِ مبانيها مسيرةَ السّنَواتِ الثّمانِ الّتي قضَاها سعودُ الحبِّ والنبلِ.. بأجملِ تَعدادٍ لمناقبِه ومحاسنِه وفضائلِه.. في مدينةِ خاتمِ الرُّسُلِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، بجوارِ سمّوِه وجوارِ أميرِها السلفِ الأميرِ فيصلِ بنِ سلمانَ اللّذَين سارَا بجميلِ الخصالِ وصادقِ الأقوالِ والأفعالِ، وملَكا قلوبَ أهلِ مدينةِ الجمالِ والجَلالِ..

مستذكرًا عِظَمَ المدرسةِ الّتي تربّى ونشأَ فيها.. تلكمُ المدرسةُ النوعيّةُ الفريدةُ.. مدرسةُ سموِّ الأميرِ خالدٍ الفيصلِ -أطالَ اللهُ في عمرِه ومتّعَ بصحّتِه.. وما أنعمَ عليهِ مِنْ برِّه بِهِ..

فللّهِ دَرُّ أميرِ مأرِبِ الإيمانِ سلمانَ بنِ سلطانَ على نشرِه هذا الجمالَ من سيرةِ عضيدِه وسنده نائبِه سعودِ بنِ خالدٍ.. كالزّهرِ والأقحوانِ في حديقةِ الأعمالِ المباركةِ الجميلةِ، في المدينةِ المنوّرةِ الجليلةِ.

سعودُ بنُ خالدٍ.. مُعظَّمٌ حرمةِ مدينةِ الحبِّ الخالدِ.. والشَّرَفِ والمجدِ التالدِ.. قصّةُ حبٍّ لا تُمحى.. وقصيدةُ ودٍّ لا تُنسى.. فسترُوى لتُحكى.. وتُحكى ليُقتدى بها.. ويُهتدى بسيرتِها.. ويُتلذَّذُ بجمالِ ما فيها.

نزلَ الأميرُ سعودُ بنُ خالدٍ المدينةَ.. وحلّ بساحِها.. وتنعّمَ ببركةِ فضلِها ورياضِها عامَ 1438 منْ هجرةِ صاحبِ العزِّ والشّرفِ نبيِّنا محمّدٍ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم.. وتوجّه كعادةِ أسلافِهِ وما جرَى عليهِ العَملُ عندَ أهلِ الفقهِ والآثرِ: بأنْ يتوجّهَ العبدُ أوّلَ قدومِه للمدينةِ إلى مسجدِ النّبيِّ المعظّمِ، وزوّرَ الشّريفَ بالفضلِ المكرّمِ.. للصّلاةِ فيهِ، ثمّ السلامِ على أشرفِ الخلقِ أجمعينَ، وخاتمِ الأنبياءِ والمرسلينَ.. مستحضرًا هيبةَ تلكَ البِقاعِ المباركةِ.. ومستشعرًا أنّ هنا كانَ يمشي النبيُّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- وصحابتُه الكرامُ.. ومنْ هنا انتشرَ الإسلامُ منْ طيبةَ الطّيّبةِ آكلةِ القُرَى.. وبما ذكرَهُ الفقيهُ اللّوذعيُّ الإمامُ النّوويُّ في كتابِه «الإيضاحِ» المليءِ بكلِّ أدبٍ زكيٍّ.. لمْ قدمَ أرضَ وحرمَ مدينةِ خيرِ نبيٍّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- حيث قالَ:

«يُستحبّ... أنْ يُكثرَ من الصلاةِ والتسليمِ عليهِ في طريقِهِ، فإذا وقعَ بَصَرُه علىَ أشجارِ المدينةِ وحَرَمِها وما يُعرفُ بها زَادَ منَ الصلاةِ والتسليمِ عليْهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، وَيَسألُ اللهَ تعالىَ أنْ يَنْفَعَه بزيارتِه وأنْ يَتَقَبلها منهُ... ويستحضرُ في قَلْبِهِ جينئذٍ شَرَفَ المدينة، وأنّها أفضلُ الدُّنيا بعدَ مكّةَ عندَ بعضِ العُلَماءِ، وعندَ بَعضِهم أفضلُها على الإطلاقِ، وأنَّ الذي شُرفتْ به -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- خيرُ الخلائِقِ أجمعينَ.

ولْيكنْ من أوّلِ قُدومِهِ إلىَ أن يرجِعَ مُستشعرًا لتعظيمِهِ، مُمتلئَ القَلبِ منْ هيبتِهِ كأنّه يَراه.. يَنبغي لهُ أنْ يُلاحظَ بقلبِه في مدةِ مُقامِهِ بالمدينةِ جلالتَها، وأنها البَلدَةُ الّتي اختارَها اللهُ تعالىَ لهجرةِ نبيّهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، واستيطانِهِ ومدفنِه، ولْيستحضرْ تردُّدَه -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- فيها ومَشيَه في بِقاعِها».

فكانَ قدومُ سعودِ الخيرِ.. قدِ ازدانَ بتلكَ الآدابِ الشرعيّةِ، والطّريقةِ المرضيّةِ الّتي عَليها العملُ عندَ فُقهاءِ الأمّةِ.

ثمّ جلَسَ في أحدِ جَنباتِ مسجدِهِ المباركِ الأمجدِ.. رافعًا يدَيه للهِ الواحدِ الأحدِ الفردِ الصّمدِ.. يدعوهُ التّسديدَ، ويَستمدُّ منهُ التّوفيقَ.. ثمّ انطلقَ منْ مسجدِ رسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- للعملِ بمهارَةٍ وأمانةٍ.. منهجُه: ننشدُ الإتقانَ.. وتطلُّعُه: نريدُ النّجاحَ.. ونُضحّيه: لِنأخذَ كلُّ واحدٍ منّا بيدِ أخيهِ إلى مقاماتِ الفَضلِ والفَضيلةِ، فنَنهضَ بخدماتِ ومَشاريعِ المدينةِ.

تقلّدَ سعودُ الخيرِ والنُّبلِ نيابةَ المدينةِ.. فكانَ معَ فيصلٍ توأمَ رُوحٍ.. ومعَ سلمانَ رفيقَ نَفسٍ يحقّقِ الطموحَ.. فكانَ معَهما خيرَ مُعينٍ بعدَ اللهِ -سبحانَه وتَعالى.. ولئنْ كانَ مجلسُ الأهالِي.. تعطّرَ بحديثِ سموِّ الأميرِ سلمانَ البليغِ العالِي في سعودِ النّبلِ والمعالِي.. فإنّه في هذا المقامِ والمجلسِ قبلَ انتقالِ أميرِ المدينةِ السّالفِ إلى شرفِ خدمةِ جوارِ أبيهِ سموِّ الأميرِ فيصلِ بنِ سلمانَ قالَ عنهُ:

«هناكَ رجلٌ طَوالَ سبعِ سنَواتٍ لمْ أسجّلْ عليهِ خَطأً، وكلُّ مؤمنٍ منَ البَشرِ خَطّاءٌ، إنّه الأميرُ سعودُ بنُ خالدٍ الفيصلُ».

وهكذا سعودُ النُّبلِ.. النّاسُ عندَ اللهِ شُهودُه.. أمراءُ ومأمورينَ ومواطِنين.

وفي هذه السّنَواتِ الثمانِ، وطوالَ مسيرةِ الأميرِ سعودٍ، كانَ عضيدَ نَجاحاتٍ وقَفَزاتٍ مذهلةٍ، لأميرَي طيبةَ الطيبةِ الأميرِ فيصلِ بنِ سلمانَ، والأميرِ سلمانَ بنِ سلطانَ في عقدٍ تكاملٍ من العملِ بمسيرةِ عطاءٍ لا تقفُ، وأنهارِ خيرٍ لا تجفُّ، جعلتِ المدينةَ في مصافِّ المدنِ العالميةِ والعربيةِ والمحليةِ، وفي موقعٍ ليس بجديدٍ عليها، لأنّها ببركةِ ما جاءَ في القرآنِ والسنّةِ لها المقاماتُ العليّةُ.

ولَم يكنْ سعودُ بنُ خالدٍ رجلَ مشاريعَ وتنميةٍ فقط، بل كانَ رجلَ خدمةٍ للدينِ، داعمًا للمشاريعِ الدينيةِ والعلميةِ، فجعلَ حلقَ مسجدِ النبي صلى الله عليه وسلم، حلقَ القرآنِ والعلمِ والسنّةِ والفقهِ محلَّ اهتمامِه، كما هوَ حالُ سموِّ أميرِ مأرِبِ الإيمانِ سلمانَ بنِ سلطانَ الذي جعلَها كسوادِ عينيهِ، فلا يفترُ عن دعمِها والاهتمامِ بها.

وكلمةٌ حقٌّ أنَّ للكمِّ الحلقِ من مفاخرِ المدينةِ وأعمالِها الأمينةِ، التي تزدادُ شرفًا وفضلًا بأنها من مسجدِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وانتشرتْ للعالمِ تحقيقًا لما جاءَ في أحدِ أسماءِ المدينةِ بأنها آكلةُ القرى، كما جاءَ في الحديثِ الذي رواهُ البخاريُّ عنهُ صلى الله عليه وسلم: «أُمِرتُ بقريةٍ تأكلُ القرى يقولونَ: يثربَ، وهي المدينةُ».

ومعنى الحديثِ غلبةُ الدينِ وانتشارُهُ منها، وهذا من بليغِ المعاني عندَ العربِ في التشبيهِ.

وكلمةٌ حقٌّ في هذا المقامِ، فإنّ لإمامِ المسجدِ النبويِّ الشيخِ عبدِالمحسنِ القاسمِ المشرفِ عليها جهودًا عظيمةً وجبارةً، وبكلِّ أمانةٍ تُذكرُ فتُشكرُ ويُدعى لهُ، فما تلكَ الحلقُ وما يُبذلُ فيها من جهدٍ وعملٍ إلا نهرٌ من أنهارِ خيرٍ ومعارفَ مسجدِ رسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم، وبِدعمِ من سموِّ أميرِ المدينةِ، وسموِّ نائبِه، معقدِ هذه الحروفِ اللذينَ وُجدَ فيهما حرصٌ عظيمٌ على هذهِ الحلقِ من أولِ يومٍ وطئتْ أقدامُهم المسجدَ النبويَّ الشريفَ.

ومحاسنُ سعودِ الخيرِ كثيرةٌ أيضًا، فهو في الثقافةِ والمعارفِ وإلهامِ الباحثينَ ودعمِهم في البحثِ والتحقيقِ سندُ خيرٍ ومصدرُ إلهامٍ، فكم بطرحٍ من مسائلَ علميةٍ نادرةٍ مهمةٍ، يزرعُ فيها فيمن يحاوره العزيمةَ والهمةَ، وأحسبُ أنني أحدهم، فكم وجدتُ منه من الفوائدِ، ومقترحاتِ البحوثِ والفوائدِ ما عادَ عليَّ بالنفعِ.

فسعودُ الخيرِ لقاؤُه خيرٌ.. وجوارُه خيرٌ.. والعملُ معَه خيرٌ.. فهوَ يتقلَّبُ بجوارِ رَسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- في نَعائمَ منَ الخيرِ.. وأحسبُ أنّ خيريّةَ المدينةِ في قولِ النّبيِّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم: «والمدينةُ خيرٌ لهمْ لوْ كانُوا يعلمونَ» -كما أسلفتُ- شاملةٌ وعامّةٌ، فمنْ ذلكَ الخيرِ والشمولِ أنْ جعلَ فيها أمراءَ نُبلاءَ.. كسموِّ أميرِ مأرِبِ الإيمانِ سلمانَ النّبيلِ بنِ سلطانَ، وعضُدِه سعودِ النّبيلِ في نيابةِ مُهاجرِ سيّدِ ولدِ عدنانَ وقَحطانَ. فهمْ بأخلاقِهمْ وحسِّهمُ النّقافيِّ والمعرفيِّ -وبخاصّةٍ في مُرتكَزِ وباعِثِ ومُباركِ تُنميةِ المدينةِ- الأساسُ الّذي هوَ تاريخُها الإسلاميُّ العريقُ، وتاريخُ معالمِ السّيرةِ النبويّةِ، لهمْ بعدَ اللهِ في دَعمِها الفضلُ المعدودُ، والموقِفُ المشهودُ.. حتّى باتَتِ المدينةُ مصنعَ مباداراتٍ وإلهامٍ لغيرِها في كيفيّةِ استِعادةِ التّاريخِ الحضاريِّ، وهويّةِ كلِّ أمّةٍ. ودونَكم مشاريعُ الأنسنةِ للأحياءِ القديمةِ والشّوارعِ العامّةِ وتأهيلِ المناطقِ التّاريخيّةِ.. وإطلاقِ مُباداراتٍ معالمِ وتاريخِ السّيرِ النّبويّةِ العالميّةِ.. كمشروعِ دَرْبِ الهِجرةِ النبويّةِ، وغيرِها منَ المباداراتِ والمشاريعِ التّاريخيّةِ والحضاريّةِ.. بأسلوبٍ ومَنهجٍ راقٍ يَجمعُ بينَ المعاصَرةِ والأصالةِ، في هذهِ المُعالجةِ ولحظاتِ الوَداعِ الصّادقةِ معَ هذا النّبيلِ.. الّذي أحبَّ أهلَ المدينةِ وأحبُّوه.. والّذي أختِمُ مَقالي بمَشهدِ الحبِّ هذا قائلًا: لقدْ علّمنا رسولُ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- كما عندَ أبي داوُدَ في «سننِه» من قَولِه: «إذا أحبَّ الرجلُ أخاهُ فلْيخبِرْهُ أنّه يحبُّه». فنَشهدُ اللهَ يا سعودَ الحبِّ.. منْ جوارِ نبيِّ الحبِّ.. في مدينةِ الحبِّ.. أنّنا نحبُّكَ في اللهِ.. ولنْ يَنسى أهلُ طيبةَ نُبْلَكَ الّذي حويْتَهمْ بهِ بنوالِكَ.. وخُلُقَكَ الّذي شمِلتَهمْ بهِ بحبِّكَ وحنانِكَ، وجميلِ وصالِكَ. وختامُ هذا الحبِّ.. هوَ حبُّ سعودٍ لرسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- ومَسجدِه الشريفِ، ومَقامِه المنيفِ.. فكما استفتحَ قدومَه للمدينةِ المنوّرةِ بمَسجدِ النّبيِّ -صلى الله عليه وسلم-.. اختتمَ مَسيرَه العمليَّ فيها بصلاةٍ آخرِ جمْعةٍ خلفَ محرابِ رسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم، وفي رَوضةِ مسجدِه الشّريفةِ الّتي فيها تُسكبُ العبراتُ، وتخرجُ الآهاتُ، وتُرفعُ الأكفُّ لربِّ السّمواتِ.. تلكمُ البقعةُ الّتي كانَ فيها مَقامُ النّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- وأصحابُه.. ومِنها فَتحُوا الدُّنيا ونَشرُوا دينَه في أمّتِه. في ذلكَ الختامِ كانَ بجِوارِه شيخُ الزُّهدِ والعِبادةِ.. والتّقدّمِ العلميِّ والمسالكِ الوقّادةِ.. شيخُ أئمّةِ مَسجدِ النّبيِّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- شيخُنا وقدوتُنا ووالِدنا الشّيخُ عليٌّ الحذيفيُّ.. الّذي أصبحَ وجودُه المعنويُّ فيهِ كأيِّ جزءٍ منْ أجزائِه.. نعيشُ جمالَ تلاوةِ القرآنِ في الصّلاةِ فيهِ معَه.. حتى شنّفتْ أسماعَنا وخالطَتْ قلوبَنا وفِكرَنا وتوجُّهَنا إلى ربِّنا. مشهدُ ختامٍ رفيعُ المقامِ.. وكأنّ لِسانَه يقولُ: كما بدأتُ منْ هنا يكونُ خِتامُ عَملي هُنا. وما أجملَ ما قالَه مِرارًا.. ومنهُ في يَومِ تَشريفِه لي في مجلسِي يومَ رحيلِه معَ نخبةٍ منْ محبّيهِ منْ بني قومِي وجيرتِي منْ أهلِ المدينةِ: «أنَّ العملَ خمسَ دقائقَ في خدمةِ مدينةِ رسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- يعادِلُ عنْدَه عملَ حياتِه كلِّها». ثمّ ختمَ ذلكَ المجلسَ الّذي شرّفَنِي به، كما كانَ يشرّفُني دومًا ويُلبسني الوِشاحَ تلوَ الوِشاحِ بكلماتٍ رفيعةٍ بديعةٍ جليلةٍ في فضلِ مدينةِ رسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- وتفيضُ حبًّا.. وتَسامَى جَلالًا لمقامِها عندَ اللهِ. وما ذلكَ إلا منْ حبِّ رسولِ اللهِ -روحِي لهُ الفِداءُ صلّى اللهُ عليهِ وسلمَ-.. وكلماتٍ راقيةٍ أيضًا عنْ تميّزِ أهلِها حاضرةً وباديةً بالخلقِ الكريمِ واللطفِ الجميلِ..

رقمَه بدموعٍ من الحزنِ وحروفٍ منَ الحبِّ
في السّابعِ منْ شعبانَ عامَ ١٤٤٦ من هجرةِ
الحبيبِ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

د. عصامُ بنُ ناهِضٍ الهجّاريّ

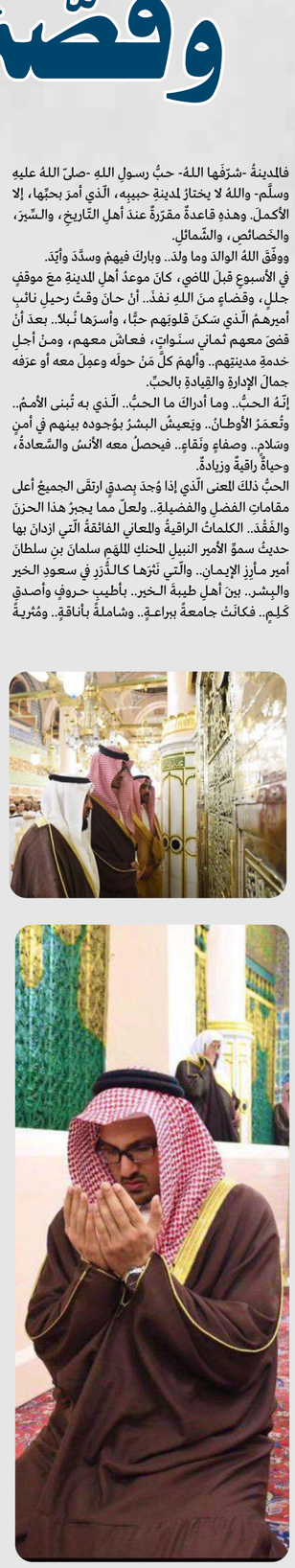

وعنْ مدَى حبِّه لهمْ.. كلماتُ نُبَلٍ.. منْ أميرِ نُبَلٍ.. في وَداعِ نُبلٍ. ولعليّ في هذا المقامِ -وكليّ حزنٌ في نهرٍ منَ الدّموعِ والنّحيبِ والوهْنِ- أناغِي قلبَه عبرَ ثماني سنَواتِ حبٍّ..أبكِي أطلالَ نُبْلِه، لا أطلالَ امرئِ القَيسِ، وأبكِي شموخَه، لا شموخَ كُثيِّرٍ عزّةَ.. وأبكِي حبَّه لرسولِ اللهِ -صلّى اللهُ وسلّمَ- وطيبةَ.. لا حبَّ العاشقينَ الهائِمينَ..

أبكيهِ بحروفٍ تبكِي ذاتُها قبلَ بكاءِ قارئِها.. حروفٌ طَلّتْ خبيسةً منَ الحزنِ الّذي أصابَني.. بقيتُ أستنطِقُها حتّى خرجتْ.. لعلّها تدوّي عبرَ الزّمنِ في ذكرى تهزُّ فيهِ الشّوقَ والحنينَ لمسجدِ خيرِ المرسلينَ -صلى الله عليه، فأقولُ والوهْنُ قدِ اعتراني والبكاءُ قدْ حوَاني:

عِنْدَ العقيقِ المُنْحَنِي وأطلّ بينَ شفُوحِهِ
هوَ هاهُنَا حدّثَ الوَداعَ اليومَ غادَرَنا الّذي
مَنْ قدْ حوانا ما جفانَا آهٍ لموقِفِ فرقةٍ
في لحظةِ التّوديعِ هذا كنتَ العضِيدَ ومَنْ نَصَرْ
كنتَ الرّفيقَ ومُلهِمًا هذا الوداعُ حسِبتُه
يا فارسَ البَيداءِ قُلْ لي هلْ وصالُكَ قد سَحَرْ
أمْ نحنُ مَفتونونَ مِنْ قُودائكمْ بقلوبِنا
إنّي أهيبُ بكلِّ مَنْ قيسٌ لبيدٌ عنترَةٌ
هلْ كانَ فيكمْ مثلُنا هل قد لقيتُم ما لقينا
أهلُ الشّهامةِ والسُّمُوّ هذا سُعودُ الخيرِ
وأكادُ أحسبُ أنّه

دَمعُ الفراقِ قدِ انهَمَرْ
أُحْدُ يُطالِعُ للقَمَرْ
وهاهُنا وقَعَ القَدَرْ
هوَ في القُلوبِ قدِ استَقَرْ
بلْ أحبَّ ولمْ يَحُذَرْ
ما منهُ بُدٌّ أوْ مَفَرُّ
القلبُ فيهِ الحزنُ قَرْ
كنتَ العضِيدَ ومَنْ نَصَرْ
يا فارسَ البَيداءِ وَقَرْ
في حُبِّهِ العُذْرِيِّ مَرّْ
والعاشِقونَ ومَنْ غَبَرْ
حُبٌّ فريدٌ مُستقِرّْ
مِنْ خِيارِ في البَشَرْ
ومَنْ حوَوْا أعلى الدُّرَرْ
وافانا بتَوديعٍ بَدَرْ
خُلِّمَ إليهِ النُّومُ جَرّْ

مَهلًا فحالي في الوَداعِ
هل جاءَ توديعُ الحَفيدِ
رمزِ العروبةِ والشّريعةِ
أمْ أنّه نزلَ القَضاءُ
يا أيُّها الشّهمُ الهُمامُ
يا أوّلَ النُّوّابِ
قد كنتَ نِبراسَ الفضا لِلْ
ومحبّةُ المختارِ باتَت
عظُمتَ مِقدَرَ النّبيِّ
تَغطيمُكم لِلْمَسجدِ
ولطيبةَ المختارِ حَبَّبْ
حِرَصٌ على برِّ الجَميعِ
كنتَ السموَّ ولا تزالُ
لا غروَ تلكَ أصالةٌ
نِبراسُكُم عبدُ العزيزِ
والجدُّ فيصلٌ قدوةٌ
ونموذجٌ لكَ والدٌ
مِنْ أجلِ ذلكمُ القيادةُ
تَجذُبُكَ نائبُ فيصلٍ
وأتاكَ سَلمانٌ فكُنْتَ
كنتَ العضيدَ مُوَفَّقًا
وشواهدُ الإنجازِ
أحبَبتَهُم، والحبُّ
ولدتَك بعدَ مَزيّةٌ
فأميرُ مكّةَ والدٌ
وغدوتَ نائبَ حِكْمةٍ
والجدُّ فيصلٌ في جِوارِ
كانَ المليكُ بُعيدَه
وأتى مليكًا فاستقامَ
هذاكَ فضلُ اللهِ
يا أيُّها الشّهمُ الهُمامُ
إنّي مَدينٌ حينما
والدِّينُ يصغُبُ ردُّهُ
لكنْ سأوفي بالدُّعاءِ
فرعاكَ ربّي رافعًا
وأطالَ عمرَكَ بالهنا
هيَ طيبةٌ معروفةٌ
فاسعَدْ بحسنِ وفائِها
يا ربِّ صلِّ على النّبي

مَحبوبٌ لِمَنْ اعتبَرْ
لفَيصلِ المَلِكِ الأبَرّْ
والمكارمِ والظَّفَرْ
وحلَّ في النّاسِ القَدَرْ
ومَنْ تخلّقَ بالدُّرَرْ
للأمراءِ في أرْضِ البَشَرْ
كنتَ فينا كالمَطَرْ
في حياتِك بالأثَرْ
وحيّدَا الفعلَ الأغرّْ
النبَويِّ يَشهدُه البَشَرْ
في فؤادِكَ قدْ وَقَرْ
ليكونَ قدوتَكُم عُمَرْ
تُقبِلُ إنْ فردٌ غَبَرْ
وُرِّثتَها ممَّنْ غبَرْ
هو المثالُ لكمْ ظَهَرْ
مَنْ خُبرُهُ مثلُ الخَبَرْ
بالحقِّ والحُسنَى جَهَرْ
صوِّبْ فيكَ النَّظَرْ
فخدمتُ شعبَكَ بالفِكَرْ
له المساعِدِ والوَزَرْ
مِلءُ المسامِعِ والبَصَرْ
تَنْطِقُ بالوقائعِ والصُّوَرْ
مِنْكُمْ قدْ تَسلسَلَ وانْهَمَرْ
معَ والِدٍ لمَنْ افتَكَرْ
كُلَّ الكسورِ بها جَبَرْ
لأميرِ طيبةَ بالقَدَرْ
نابَ عنْ مَليكٍ أغرّْ
حسَنَ السِّياسةِ مقتَدِرْ
على الطّريقةِ واقْتَدَرْ
يغطيهِ الإلهُ لِمَنْ شكَرْ
ومنْ له وُدّي اسْتَمَرّْ
وَشُحتمونِي بالدُّرَرْ
إنْ كانَ يُوصَفُ بالكِبَرْ
لكمْ بأوقاتِ السَّحَرْ
أقدارُكُمْ بين البَشَرْ
وحماكَ مِنْ كُلِّ الضَّرَرْ
في ما مضَى والمُنْتَظَرْ
ما هلَّ وانسابَ المَطَرْ